القدس في الخطبة العربية
دراسة استقرائية تحليلية

حنان إسماعيل أحمد عمايرة

أستاذ مساعد بقسم اللغة العربية، كلية الآداب
الجامعة الأردنية، المملكة الأردنية الهاشمية

الملخص

هذه محاولة تعرّف بالفن الخطابي، من حيث مفهومه وخصائصه وبواعثه في العصر الأيوبي، الذي تركزت الخطب القدسية فيه. وقد أشير إلى الخطباء والوعاظ والأئمة الذين رسموا جانباً من صورة الحركة الفكرية في ظل المسجد الأقصى، مع التعرّض إلى نماذج من الخطبة بنوعيها الرئيسين: الخطب الحربية، والخطب الدينية. وقد درست هذه الخطب من حيث مضمونها، والدور الفكري والثقافي والسياسي والاجتماعي الذي تقوم به، علاوةً على ما تمتاز به من خصائص أسلوبية.

وثمة ميل قوي إلى أن نصوصاً خطابية لم تصلنا، وأما ما هو متوفر فيدل على خصوصية للعصر الأيوبي، تمثلت في نشاط الحركة الخطابية المتعلقة بأحداث جارية في بيت المقدس. ولعل هذا يُعزى إلى غزارة الأحداث الواقعة في القدس آنذاك.

مقدمـة

إن نظرة متفحصة في عمر الفن الخطابي الأدبي في بيت المقدس، تنبئ بأن العصر الأيوبي كان ذروة من ذرا الشباب في هذا العمر، فقد توافرت بواعث له ومهيئات، وعُرف له علماء خطباء، وأئمة، ووعاظ، امتازوا علماً وعدداً.

وهذه دراسة تحاول الإحاطة بما يمكن أن يقدم تصوراً للخطابة في ظل بيت المقدس، وما يتضح من معالم الفترة الزمنية التي شهدتها هذه المدينة المقدسة، ما بين حرب ضروس وفرحة نصر وخيبة أمل بتسليمها إلى الأعداء.. فالقدس مدينة في الموقع والمكان، وعالم من المحبة والرفعة والجمال مختزن في قلب كل مسلم ومسلمة.

والأدب الخطابي بدوره تعبير عما يقع ويجري، وعلى الرغم من قلة النماذج المحفوظة لنا من الخطبة، فإن إشارات المصادر تنبئ بما هو أكبر وأعمق.

وهذه محاولة تعرِّف بالفن الخطابي من حيث مفهومه وخصائصه وبواعثه في العصر الأيوبي الذي تركزت الخطب القدسية فيه، كما أشير إلى الخطباء والوعاظ والأئمة الذين رسموا جانباً من صورة الحركة الفكرية في ظل المسجد الأقصى، مع التعرض إلى نماذج من الخطبة بنوعيها الرئيسين (الخطب الحربية، والخطب الدينية، ومنها خطب مناسبات المسلمين)، ودراسة هذه النماذج من حيث مضمونها، والدور الفكري الثقافي والسياسي والاجتماعي الذي تقوم به، علاوةً على ما تمتاز به من خصائص أسلوبية.

والنماذج المعروضة هنا هي للقاضي ابن الزكي، في فتح بيت المقدس (583هـ)، ولصلاح الدين الأيوبي في حث جنده على الجهاد في أثناء محاولة الفرنجة السطو على بيت المقدس بعد تحريرها (583هـ)، بالإضافة إلى المجلس الوعظي الذي عقده سبط بن الجوزي عندما سلم السلطان الكامل القدس (626هـ). وقد تمت الإشارة إلى خطبتين لعمرو بن العاص، ومعاوية بن أبي

سفيان، إشارةً عابرةً؛ فهما خطبتان قصيرتان محدودتا القيمة بالنسبة إلى موضوعنا (صورة القدس في الخطبة).

وكانت من برنامج البحث عند التعرض إلى خطبة ابن الزكي أن يشار إلى ظاهرة الاتباعية، وتأثر ابن الزكي بالخطيب ابن نباتة الفاروقي، والشاعر أبي تمام في أمور مخصوصة.

وأما بعد،

فلست أزعم أنها الخطب الوحيدة التي تخدم موضوعي، إلا أنها ما استطعت الوصول إليه بعد بحث وقراءة في الكتب المصادر، وهي ليست بالكثرة المطمئنة في الكشف عن صورة القدس في الأدب الخطابي، ولكنها حتماً ستضيء ملامح من هذه الصورة.

الخطابة.. هذا الفن الأدبي

إن للخطابة بوصفها فناً شفاهياً يخاطب الجمهور ارتباطاً وثيقاً بمفاهيم تكاد تكون العناصر اللصيقة بهذا النوع الحي من الأدب: حدة الذهن، وحضور البديهة، وجودة الإلقاء بالنسبة إلى الخطيب. وأما الخطبة ففن رفيع يعتمد الوضوح في الرأي، وجمال العرض، إضافةً إلى حسن التأثير، وعمق الإقناع، وخصب البيان، وتدفق الأفكار والحجج، وتوفر التنظيم والتنسيق.

وللخطابة في تاريخ الأدب العربي حضور قوي، فمن ذي الإصبع العدواني في الجاهلية، إلى الخلفاء الراشدين، ومعاوية، وزياد بن أبيه، وقطري بن الفجاءة، والحجاج، في عصر صدر الإسلام وبني أمية، وانتقالاً إلى أبي جعفر المنصور، وعبد الله بن طاهر، وغيرهم من العباسيين. فالخطبة لم تغب، بل واكبت الحوادث السياسية والتاريخية والاجتماعية. وقد ظل لفن الخطابة خصوصية الرسمية، والسمت المتشح بالوقار والهيبة والجدية، مما أكسبه نظرة خاصة إليه، تتمثل في أن متلقي الخطبة يستحضر شيئاً من خصائصها هذه، فيتعامل مع نصها (المنقول إليه شفهياً أو كتابياً) بجدية يمليها الطابع الرسمي

للمناسبة على الأغلب، بخلاف تلقي الشخص ذاته لقصيدة شعرية وجدانية أو رسالة إخوانية أو قصة أو خاطرة. . إلخ.

وأما الخطابة في العصر الأيوبي، فيبدو أنها كانت فناً ذائعاً، نظراً للحاجة إليه في الحروب وإثارة الحماسة والوعظ والإرشاد وغير ذلك من الأغراض، وعلى الرغم من قلة النصوص التي وصلت، قياساً بما ينتظر وجوده، فإن إشارات[1] هنا وهناك عن خطباء هذا العصر ومناسباته الرسمية المحتاجة إلى خطب من شأنها أن تنبئ عن نتاج خطابي كبير، وثروة أدبية لم يصل سوى شذرات منها.

فالخطابة في عصر بني أيوب لها بواعث

أ - الدعوة إلى قتال الفرنج والجهاد، ويعتمد هذا النوع من الخطب على إثارة الحماسة، واستنهاض الهمم، وبث الروح الجهادية التي قوامها نصر أو شهادة. ومن هذا النوع خطب صلاح الدين الأيوبي في جنده في عكا، وبيت المقدس[2].

ب - التبشير بالفتح والنصر، والتهيئة بدحر العدو وتخليص المسلمين ومقدساتهم من دنس الاحتلال الصليبي. وفي خطبة النصر توكيد لأهميته وقيمة إحرازه، كما أن فيها تحميدات كثيرة، وإشادات بالفاتحين ودعاء لهم، ويمثل على هذا النوع بخطبة القاضي ابن الزكي الشهيرة في فتح بيت المقدس، بعد احتلال دام مئتي عام.

ج - شهد العصر الأيوبي نكسات جرها عليه تهاون الملوك، وضعف الشعوب، فسُلمت القدس تارةً، وخُربت أخرى. فكانت خطب ناقدة للحكام تعيب تخاذلهم وجبنهم، ولم يصلنا من هذا النوع إلا ملامح عن خطبة العز بن عبد السلام التي أنكر فيها تسليم القدس غاية الإنكار، بعد أن تنازل عنها الملك الصالح إسماعيل[3].

لقد عبرت الخطبة عن المواقف الحاسمة التي عاشها الناس في القدس في العصر الأيوبي. وقد ركز على هذا العصر من جهة، أن القدس فيه شهدت

أحداثها الجسام من نصر وهزيمة وتسليم وفرح وحزن وهم وفرج. . فكان الناس يجتمعون في أيام الجمع حول الخطيب في المسجد، أو يتجمهر الجنود حول قائد المعركة، ليستمعوا بياناً خطابياً حول ما كان وما ينتظر، وما يراد منهم التزامه أو اجتنابه، وقد كان للخطيب منزلة سنية، فكان يقال في سيرة العالم وصاحب المكانة: (هو من بيت رياسة وخطابة)[4].

وقد واكب الوعظ الخطابة، ولعب دوراً في تهيئة النفوس إلى أداء الواجب وفعل الخير، وكان السلطان صلاح الدين يهتم بالوعاظ، ويوزع المنح عليهم ويقربهم[5].

وتسجل المظان المتحدثة عن الأدب في العصر الأيوبي عدداً من أسماء الخطباء الذين أسهموا في رفد الحركة الأدبية بخطب دينية وحربية واجتماعية، هدفها التوجيه والوعظ والإصلاح، ومن هؤلاء الخطباء: محيي الدين بن الزكي[6]، وسبط بن الجوزي[7]، والعز بن عبد السلام[8]، وهم أقطاب الخطابة في هذا العصر، كما أن من الخطباء البارزين يحيى بن سلامة الحصكفي[9]، وابن المنير الإسكندري[10]، وابن دقيق العيد[11]، والقاسم بن القاسم الواسطي[12]، وأحمد بن المبارك بن نوفل[13].

كما أن من الخطباء المهمين أبا الحزم محمد بن تقي الدين القرقشندي، الذي تولى خطابة المسجد الأقصى سنة (822هـ)، فقرئ توقيعه بالأقصى، ثم توجه إلى منزله يحيط به أعلام المسجد وعلماؤه الأجلاء[14].

وبالعودة إلى المصادر الأدبية التي تؤرخ لتلك الحقبة، نجد الكثير من أسماء الخطباء والوعاظ، غير أنه لم يكتب لخطبهم أن تصلنا، وبعضهم وصلتنا مؤلفاتهم عن بيت المقدس والحديث عن فضائله، وخصوصيته الدينية والفكرية، ككتاب فضائل القدس لابن الجوزي، الذي يقدم معلومات قيمة عن مكانة القدس وتاريخها ومسرى الرسول (ﷺ) إليها، وفتح عمر لها. . . إلخ، إلا أنه لم يذكر من خطبه في بيت المقدس شيئاً[15].

ولم تقتصر وظيفة الخطيب على الخطابة، بل تعدتها إلى التدريس

والإفتاء، وتولي مشيخة إحدى المدارس، كالمدرسة الصلاحية. وقد كان من قبيل الاهتمام بالخطابة تخصيص دار لها بالأقصى، بجوار الزاوية الختنية[16].

ومن سمات الخطابة في ذلك الوقت كونها وراثية في كثير من الأحيان، فالابن يتولاها بعد الأب، كما أن الأخ يتولاها بعد أخيه، في حالة كون الخليفة صغير السن ينوب عنه شخص آخر حتى يمتلك زمام الأمر[17].

وتقسم الخطابة إلى أقسام: أحدها يختص بالأعياد والجمع والحث على الجهاد، (الخطابة الدينية)، والثاني هو الخطب التدريسية التي تلقى على هيئة دروس، كدرس قاضي القضاة، شيخ الإسلام نجم الدين أبي البقاء الكناني المقدسي سنة (878هـ)، عندما أعيد تعيينه بالمدرسة الصلاحية[18]، كما أن من أقسام الخطابة تلك الخطب التي كان العلماء يستهلون بها مجالسهم العلمية أو مصنفاتهم، كتصنيف القاضي زين الدين التميمي الداري كتاباً في التفسير سماه: "درر النفائس في ملح المجالس"، وقد صنفه على طريقة الوعظ، وافتتح كل مجلس منه بخطبة، كما تعد خطب الاستسقاء نوعاً من الخطب، ومن ذلك خطبة لشرف الدين بن جماعة في قحط أصاب بيت المقدس سنة (895هـ)، وكانت خطبة بليغة مليئة بالتضرع والابتهال والدعاء[19].

ومن سمات الخطابة في المسجد الأقصى أنها كانت مشاركة بين عدد من العلماء، فواحد بيده النصف، والآخر الثمن.. إلخ[20]. ويدل هذا على عناية بالغة بالخطابة في ظل المسجد الأقصى، كما يدل على توفر الخطباء ذوي المكانة والاقتدار في العلم، وإذا كان للخطباء الدور الكبير والمهمة الحساسة في التثقيف والتوجيه والبناء، فإن للأئمة دوراً آخر لا يقل أهمية عن دور الخطباء. وكان الإمام يجمع إلى المهمة الأولى له (الإمامة في الصلاة) مهمات أخرى، كالتدريس في المدارس المحيطة بالمسجد، ومشيخة الصلاحية. وكان هؤلاء يدرسون شتى العلوم من قراءات، ولغة، وتفسير، وبلاغة. وقد رتب للمسجد الأقصى أربعة من الأئمة ينتمي كل منهم إلى أحد المذاهب الأربعة: المالكي، والشافعي، والحنبلي، والحنفي، بالإضافة إلى أئمة آخرين قاموا بدور مكمل لدور هؤلاء الأئمة الكبار[21].

ومن الأئمة المعروفين شيخ الإسلام جمال الدين بن جماعة الكتاني الحموي الأصل المقدسي[22]، والشيخ شمس الدين أبو عبد الله محمد[23].

ومما يدل على رفعة المنزلة، والتقدير البالغ اللذين حظيت بهما الخطابة في بيت المقدس أبيات لقاضي القضاة شيخ الإسلام بدر الدين أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن جماعة الكناني يعبر فيها عن حبه لعمله هذا في ظل المسجد الأقصى:

يا لَهْفَ نفسِي لو تدوم خطابتي ... بالجامع الأقصى وجامع جُلقِ
ما كان أهنا عيشِنا وألذَّه ... فيها وذاك طرازُ عمري لو بَقِي
الدينُ فيه سالمٌ من هفوةٍ ... والرزق فوق كفاية المسْترزقِ
والناسُ كلهمُ صديقٌ صاحبٌ ... داعٍ وطالبُ دعوةٍ بترفقِ[24]

ولا يخفى ما في هذه الأبيات من إشارات إلى العزة والعيش الكريم اللذين نالهما الخطباء، وما كان من بيئة إسلامية صحيحة، تنعم بالصدق والصلاح وحسن الدعوة إلى الشريعة.

ويعد الوعظ العنصر الثالث المكمل للخطابة والإمامة، فقد كان له دور واضح في العصرين الأيوبي، والمملوكي، في بيت المقدس، وكان الوعظ يتجه إلى الحث على الجهاد أو انتقاد بعض الحكام، كمجلس سبط بن الجوزي الذي عقده للتنديد بالملك الكامل الأيوبي (626هـ) مما سيلي ذكره[25].

ومن مجالس الوعظ الشهيرة مجلس زين الدين بن نجا، وفيه كان قد نصب له صلاح الدين الأيوبي سريراً كبيراً للوعظ ليخطب من فوقه، فألقى خطبةً ذكر فيها: "من خاف ومن رجا، ومن سعد ومن شقى، ومن هلك ومن نجا.."[26].

وقد لعب الوعظ دور المثير المحفز لهمم الجنود، فكان المسلمون المحاربون إذا وهنوا أو ثقلت وطأة العدو عليهم، وبدأ اليأس يعلو وجوههم، فكر السلطان بأمرهم ودعا لهم بشيخ من كبار الوعاظ في الدولة، فيذكّرهم بآيات الله. ومن الحوادث التي يستشهد بها على الدور الفاعل للوعظ، أنه عندما

استعاد الصليبيون عكا، وقوي أمرهم بها، وتطاولوا بطلب القدس من صلاح الدين، وُجد في جيش المسلمين رجلان من دعاة الركون والمهادنة، وهما: ابن المشطوب، وأبو الهيجاء السمين.. وكان من رأيهما أن لا مانع من تسليم القدس للصليبيين؛ حقناً للدماء المسلمة، فعز على صلاح الدين هذا القول، وشق عليه التقاعس والذل اللذان ينبئ عنه رأيهما، فكان مجلس عظيم دعا صلاح الدين إليه القاضي بهاء الدين بن شداد للكلام[27]، وكان مما قال: "إن النبي (ﷺ) لما اشتد به الأمر بايعه الصحابة - رضي الله عنهم - على الموت في لقاء العدو، ونحن أولى من يتأسى به (ﷺ)، والمصلحة الاجتماع عند الصخرة والتحالف على الموت، ولعل ببركة هذه النية يدفع هذا العدو"[28].

القدس في شذرات من الخطب

وفي جمهرة خطب العرب، يقع الباحث على خطبة لعمرو بن العاص، إذ كان بينه وبين أهل الأردن عهد فنقضوه، فكان أن حمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي (ﷺ)، ثم قال: "أما بعد فقد برئت ذمة الله من رجل من أهل عهدنا من أهل الأردن، قدم على رجل من أهل إيلياء، أو كان عنده لم يأتنا به، ولم يرفعه إلينا، ألا ولا يبقين رجل من أهل عهدنا إلا تهيأ واستعد، حتى يسير معي إلى أهل إيلياء، فإني أريد المسير إليهم والنزول بساحتهم، ثم لا أزايلهم حتى أقتل مقاتلتهم، وأسبي ذراريهم، أو يؤدوا الجزية عن يد وهم صاغرون"[29].

تدل هذه الخطبة - على قصرها - على ما كان عليه المسلمون من قوة وسطوة، وحكامهم وقادتهم من إخلاص وغيرة على المقدسات وأرض المسلمين، فما كانت بوادر الخيانة تظهر، حتى هب عمرو بن العاص يستحث المسلمين على الخروج إلى أهل إيلياء، وقتالهم، وسبيهم، نتيجة لتغطيتهم على من التجأ إليهم من أهل الأردن، بعد نقضه العهد مع عمرو بن العاص. فكانت إيلياء مدينة تضم غير المسلمين بشرط أن يدفعوا الجزية، وإزاء النقض وبوادر الخيانة تتخذ الإجراءات الفورية من خروج للقتال والتأديب، وبهذه السياسة الحاسمة فحسب ساد المسلمون الدنيا (آنذاك)!.

وفي خطبة ثانية لمعاوية بن أبي سفيان يستطلع آراء أهل الشام في مبايعته خليفةً، يذكر من فضائل الشام كونها المكان الذي ضم أرضاً مقدسةً هي مقر الأنبياء والصالحين، وهو يربط بين اختيارها لتكون مقدسة، وما عليه أهلها من صلاح وطاعة وتقوى، أهلتهم لأن يشرفوا بقدسية أرضهم.

وقد جاء من كلامه: "الحمد لله الذي جعل الدعائم للإسلام أركاناً، والشرائع للإيمان برهاناً، يتوقد قبسه في الأرض المقدسة، جعلها الله محل الأنبياء والصالحين من عباده، فأحلهم أرض الشام ورضيهم لها، لما سبق في مكنون علمه من طاعتهم ومناصحتهم خلفاءه والقوام بأمره، والذابين عن دينه وحرماته، ثم جعلهم لهذه الأمة نظاماً، وفي سبيل الخير أعلاماً. . يردع الله بهم الناكثين، ويجمع بهم ألفة المؤمنين، والله نستعين على ما تشعب من أمر المسلمين بعد الالتئام وتباعد بعد القرب"[30].

ففي النص إشارة إلى ما عرف عن أهل الشام - ومنهم أهل القدس - من كريم الصفات، وأصالة الأخلاق، ومناصحة الحكام، ما جعلهم قدوةً لسائر المسلمين، وأسوةً يهتدى بها.

الخطبة توجه الجيوش الإسلامية وتحفز الهمم

جاء أن صلاح الدين الأيوبي خطب في جنده يستنفر عزائمهم، ويقضي على ما قد يدب في هممهم من وهن ويأس، وهي خطبة قيلت في موقف شديد الحساسية. فالصليبيون تمتد عيونهم إلى القدس، ويطالبون بها بإلحاح، والجنود بحاجة إلى من يبث فيهم مزيداً من الشجاعة والأمل ليواصلوا المهمة بقوة واستبسال، ويحُولوا دون توجه الفرنج مرةً أخرى لاحتلال القدس (583هـ).

"الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، اعلموا أنكم جند الإسلام اليوم ومنعته، وأنتم تعلمون أن دماء المسلمين وأموالهم وذراريهم معلقة بذممكم، وأن هذا العدو ليس له من المسلمين من يلقاه إلا أنتم، فإن وليتم بأنفسكم - والعياذ بالله - طوى البلاد طي السجل للكتاب، وكان ذلك في

ذمتكم، فإنكم أنتم الذين تصديتم لهذا، وأكلتم بيت المال، فالمسلمون في سائر البلاد متعلقون بكم، والسلام"[31].

فهذا نموذج من الخطبة الحربية التي تتسم بسمات خاصة:

1 - تميل الخطبة الحربية إلى الإيجاز، مراعاةً للظرف الذي تقال فيه.

2 - استهلالها بالحمد والصلاة وعلى النبي (ﷺ)، بصورة مختصرة جداً، ليس فيها تفنن التحميد والدعاء، كما يُلحظ من أنواع أخرى من الخطب (الخطب الدينية مثلاً).

3 - راوح الخطيب بين الترغيب والترهيب في مخاطبة الجنود، وقد ابتدأ بالترغيب أولاً مثنياً ومبيناً المسؤولية المنوطة بالمخاطبين، ثم استعمل أسلوب الترهيب بالعاقبة السيئة التي ينتظر حدوثها في حال تخليهم عما يوكل إليهم.

4 - الدخول مباشرةً إلى صلب الفكرة المقصودة، وهي ضرورة خوض المعركة ضد الصليبيين، وتأكيد أن هذه مهمة ناطها الناس بالجنود، وبنوا عليهم الأمل في تحقيق الأمان والكرامة لهم، فعلى الجنود المسلمين أن يكونوا بمستوى ما أمل فيهم.

5 - في الخطبة مراوحة بين أسلوبين: الأول يُشعر الجندي المسلم بأهميته ودوره بالغ الأهمية، وكونه الأمل المرجو، والسد المنيع.. (اعلموا أنكم جند الإسلام اليوم ومنعته، وأنتم تعلمون أن دماء المسلمين.. معلقة بذممكم..)، والثاني فيه نوع من التحذير والتخويف من عاقبة ترك القتال (فإن وليتم بأنفسكم - والعياذ بالله - طوى البلاد طي السجل للكتاب، وكان ذلك في ذمتكم، فأنتم الذين تصديتم لهذا، وأكلتم بيت المال). ففي هذه العبارات تبليغ بإلزامية الدور المنتظر من الجندي، فهو الذي اختار راضياً، ونال راتبه من بيت المال هو وذووه، فكان من اللازم أن يلبي النداء إذا أزف الأوان.

6 - بساطة العبارة ووضوحها أمران ظاهران، كما لم تستخدم أساليب بلاغية

كالمجانسة وغيرها.. وثمة تشبيه واحد مقتبس من القرآن الكريم (طوى البلاد كطي السجل للكتاب).

7 - ختمت الخطبة بعبارة (والسلام)، فكانت خاتمة موجزة بسيطة كما هي الحال في الاستهلال.

وهكذا فإن للخطبة الحربية أو "خطب القواد" - كخطبة صلاح الدين المذكورة - طبيعة خاصة من حيث كونها قصيرة لا حظ لها من أناقة اللفظ، والصنعة الأدبية[32].

الخطبة تبشر بالفتح وتنقل فرحة النصر

كانت فرحة كل مسلم باستعادة بيت المقدس، كمن وقع على كنز عظيم لا يكاد يصدق عينيه لمرآه.. وكان أن تنافس كبار الخطباء وأعلام الأئمة على التبشير بهذا الفتح، وقد تناقشوا كثيراً في أمر من سيكون صاحب الشرف الأول، وتفاوضوا حول ذلك، وكل يرشح نفسه تصريحاً أو تلميحاً كما يقول صاحب الفتح القدسي[33]، وهم محقون في شدة حرصهم على أن ينال كل منهم ذلك الشرف، فالفتح عظيم، والمناسبة منتظرة من عقود.

وكان أن رفعت الأعلام وكسي المنبر، واجتمع الناس جماعات كالأمواج، فكأنه يوم عرفات[34].. وظل الأمر كذلك حتى حان زوال الشمس، إذ صدر أمر من السلطان صلاح الدين بأن يكون القاضي محيي الدين بن الزكي صاحب الخطبة القدسية، يقول العماد الأصفهاني: "فأعرته من عندي أهبة سوداء.. حتى يكمل له شرف الإفاضة والإضافة.. واهتزت أعطاف المنبر واعتزت أطراف المعشر"[35].

ونستطيع أن نرى كيف عبرت حركة التصنيف الأدبي عن سير هذه الخطبة المتميزة، التي انتقى خطيبها صلاح الدين بنفسه، وجاء نصها مرآة للمشاعر والمعاني المعتلجة في النفوس جميعاً آنذاك.. وهذا ما عبر عنه العماد الأصفهاني، الذي كان شاهد عيان في ذلك اليوم، يقول في وصف هيبة الموقف: "وخطب وأنصتوا، ونطق وسكتوا، وأفصح وأعرب، وأبدع

وأغرب، وأعجز وأعجب، وأوجز وأسهب، ووعظ في خطبته وخطب بموعظته، وأبان عن فضل البيت المقدس، وتقدسه. . "[36].

وينوه بأن خطبة ابن الزكي هذه هي واحدة من أربع خطب ألقاها ابن الزكي في أربع جمع متتالية، غير أنها الوحيدة التي وصلت إلينا. وهي خطبة يرجح أن ابن الزكي كان قد أعدها فيمن أعد خطباً من الأئمة والخطباء، وليست خطبة ارتجالية[37].

وقد كان لاختيار ابن الزكي أول خطيب بعد الفتح القدسي مسوغات، منها أنه صاحب مكانة علمية سامقة، فهو على جانب عظيم من العلم بالأدب والشريعة، وصاحب لسان طبع وبلاغة[38]، ومنها أيضاً أن ابن الزكي كان قد تنبأ بفتح القدس في شهر رجب:

وفتحُك القلعة الشهباء في صفر مبشّر بفتوح القدس في رجب[39]

يفتتح ابن الزكي خطبته بعدد من الآيات القرآنية الموائمة لموضوع الخطبة: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾، ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾﴾، ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾، و﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾، و﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ﴾، و﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾، و﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾، و﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

إن الجامع بين الآيات السابقة هو الحمد، فالحمد لله الذي دحر الأعداء، والحمد له على النصر، وعلى نعمه، وآلائه المتجلية في خلق السماء والأرض، وهو استهلال بارع قوي، إذ ليس أبلغ من جمع من الآيات يؤكد معنىً واحداً، هو الحمد على النصر المؤزر، وانتهاءً بعهد من الاحتلال والتنكيل والآلام. . إن

الاستشهاد بالآية نفسها جاء هنا أبلغ من الاقتباس والإشارة إلى معناها بعباراته الخاصة.

ثم يأتي نص الخطبة في بداياته مؤكداً - للمرة الثانية - معنى الحمد: "الحمد لله معز الإسلام بنصره، ومذل الشرك بقهره، ومصرف الأمور بأمره، ومديم النعم بشكره.. أحمده على إظفاره وإظهاره، وإعزازه لأوليائه، ونصره لأنصاره.. "[40].

يقول ابن الزكي: "وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، شهادة من طهّر بالتوحيد قلبه وأرضى به ربه، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، رافع الشك وداحض الشرك.. "[41].

إن هذا الذكر لمعاني التوحيد والشهادة، لهو توكيد لنصرة الإسلام بوصفه ديناً وعقيدةً. فالحرب كانت حرباً عقدية[42]، لا حرب مغانم اقتصادية أو غير ذلك، فلهذا جاء المقام ملائماً للتشهد والتوحيد، علاوةً على ذكر فضائل النبي (ﷺ)، والتركيز على دوره في مقارعة الشرك والمشركين، مما هو مرتبط بما بين صلاح الدين والمسلمين جميعاً، وأعدائهم من مساجلات قتالية، همها دحض الشرك وطرده من الأرض الإسلامية.

وفي الوقت نفسه، فإن ذكر الخلفاء الراشدين ودور كل منهم في الحفاظ على كلمة الدين أتى مترابطاً بما قبله من الإشارة إلى أن الصراع كان في العقيدة والدين.

ثم يلتفت ابن الزكي إلى جمهور الناس مخاطباً مبشراً إياهم برضوان الله عليهم بعد هذا الفتح، مكافأة سخية على الشجاعة والبسالة وتطهير البيت المقدس، ذاكراً في هذا المجال فضائل المسجد الأقصى ومكانته الرفيعة: "فهو موطن أبيكم إبراهيم، ومعراج نبيكم محمد عليه السلام، وقبلتكم التي كنتم تصلون إليها في ابتداء الإسلام، وهو مقر الأنبياء، ومقصد الأولياء، ومقر الرسل، ومهبط الوحي، ومنزل تنزل الأمر والنهي.. إلخ"[43]، وهو "أولى

القبلتين وثاني المسجدين وثالث الحرمين، لا تشد الرحال بعد المسجدين إلا إليه، ولا تعقد الخناصر بعد الموطنين إلا عليه. . "[44].

وينتقل الخطيب إلى الجيش الفاتح مشيداً به، واصفاً إياه بالجيش المصطفى من الله، والمبارك، الذي هو امتداد لجيش الفتح الإسلامي عبر تاريخ من المعجزات النبوية والوقعات البدرية، والعزمات الصديقية، والفتوح العمرية، والجيوش العثمانية، والفتكات العلوية. . فكانت مكافأة هذا الجيش، تحرير عظيم بعد طول امتحان وابتلاء عسير. فكان فتح بيت المقدس على يد هذا الجيش تجديداً للفتوحات الغابرة وتذكيراً بها.

ويركز ابن الزكي على أمر الفتح نفسه، فيصوره بأوصاف تنبئ عن قدرته، وسناء منزلته، فهو فتح "فتحت له أبواب السماء، وتبلجت بأنواره وجوه الظلماء، وابتهج به الملائكة المقربون، وقر به عيناً الأنبياء والمرسلون. . "[45].

وثمة رجوع إلى ذكر المسجد الأقصى، والحديث عن فضائله، للدلالة على أن أهمية الفتح مستمدة من أهمية المكان المفتوح، وكونه مركزاً مشعاً من مراكز المسلمين الدينية والفكرية والثقافية، بل هو ذو أهمية تاريخية "أليس هو البيت الذي عظمته الملوك، وأثنت عليه الرسل، وتليت فيه الكتب الأربعة المنزلة من إلهكم عز وجل؟ أليس هو البيت الذي أمسك الله عز وجل الشمس على يوشع لأجله أن تغرب؟ "[46].

وابن الزكي حاله كحال كل مسلم في ذلك الوقت، رأى في تحرير القدس حلماً بعيداً تمثل حقيقةً، وأمنيةً نالها، وقد كان لا يتأمل نوالها، فهو يهنئ المسلمين بالفتح ويباركه عليهم، وهو في الوقت نفسه يشدد على المحافظة عليها، وفتح العيون على كل من يفكر باحتلالها، فتحريرها كان حدثاً مهولاً يصعب تكراره. ولم يكتف ابن الزكي بالقول بحفظ القدس، بل أوضح الوسائل وبينها: التمسك بتقوى الله، والاعتصام بالدين، والبعد عن الهوى، وترك التخاذل، بالإضافة إلى تنبيهه على ضرورة دحر الأعداء تماماً والتخلص من بقاياهم، حاثاً المسلمين على الجهاد، ومحذراً إياهم مما قد يعتري النفوس الإنسانية من غرور وخيلاء إزاء ما تظن أنه تحقق بفضلها، متناسية أن النصر من

عند الله عز وجل. ولئلا تغيب فرحة النصر وسط تدفق التنبيه والتحذير. يعود ابن الزكي فيقول: "الله أكبر، فتح الله ونصر، غلب الله وقهر، أذل الله من كفر"[47]، مذكراً مؤكداً، قبل أن ينتقل ثانية إلى الحديث عن ضرورة الحفاظ على ما حرر، وابن الزكي يرى بنظر ثاقب أهمية مواصلة الجهاد، وعدم الاكتفاء بما أنجز، بل إنها البداية، فعليهم إذن الاستمرار، لأن "الأوامر بأواخرها، والمكاسب بذخائرها"[48]، وهو يدلل على كلامه بدليل ملموس، يشجع المسلمين على المضي بثقة وعزم، فالآن غدا يقابل كل كافر عشرون مسلماً، وهي فرصة ينبغي استثمارها.

وكما جرت العادة، فإن الخطبة تقسم قسمين: الأول وهو يشكل الجزء الأعظم من الخطبة، وقد كرسه ابن الزكي هنا للتهنئة والتبشير، والإشادة بالجيش الإسلامي، كما أوضح مكانة بيت المقدس التاريخية والدينية وقيمتها المعنوية، مؤكداً أن الأهم من النصر المحافظة عليه ومتابعة الجهاد.

وعلى عادة الخطباء في تقسيم الخطبة إلى قسمين، ألقى ابن الزكي القسم الثاني من خطبته، مركزاً على الدعاء للسلطان وذكر خصائله من إخلاص للدين، وهيبة وغيرة على المسلمين، كما وضح صفاته المتعلقة بالنصر على الصليبيين، من حرصه على جمع كلمة المسلمين وتوحيدهم، وصلاحه في شؤون الرعية، وحسمه في قطع شأفة الأعداء.

ويُلحظ على دعاء الخطيب لصلاح الدين، أنه يتجاوز كونه دعاءً لسلطان حاكم وخليفة مسؤول، فهو دعاء لقائد الحروب ومالك الإقدام، المضحي في سبيل إرضاء ربه، بل هو دعاء لأمل المسلمين وسيفهم القاطع.. وكل دعاء دعا به ابن الزكي ينطوي على إشادة بفضيلة لصلاح الدين ورجاء إلى الله أن يديمها عليه ويديمه للمسلمين.

وليس بغريب أن يشيد ابن الزكي وغيره من الخطباء بالسلطان صلاح الدين الأيوبي، فهو من الذين كانت لجهودهم آثارها المباشرة في تطور الخطابة الإسلامية ورعايتها، فالمدارس التي أنشأها هو - وحفدته من بعده - كان لها الدور الرائد في تغذية الخطبة، بمن يدرّس فيها من الفقهاء والوعاظ وبمن

يتخرج فيها منهم أيضاً، ومن أبرز المدارس التي أمر ببنائها صلاح الدين في القدس، المدرسة الصلاحية (1192م)، والمدرسة الميمونية (1196م)، وقد نفذ بناءها خازن السلطان، والمدرسة الختثية (1191م)، وأما في عهد أبنائه وحفدته الذين ساروا على نهجه فقد أنشئت المدرسة الأفضلية (1193م)، والمدرسة المعظمية (1231م)، والمدرسة البدرية (1213م)، وغيرها من المدارس[49].

وبالارتباط مع ما شدد عليه الخطيب من ضرورة أن يستمر الجهاد، جاء دعاؤه حافلاً بالدعوة إلى الأمر نفسه، مرجياً أن تفتح سائر البلاد، وتذل أنوف الكفرة في سائر الأمصار، وتعم شريعة الإسلام أرجاء العالم.

تنعكس في خطبة ابن الزكي شخصية الخطيب المسلم ذي الأدب البالغ في تعبيره، فهو أولاً يحمد الله على نعمة الفتح، ويثني عليه أجزل الثناء، ثم يثني بذكر الرسول (ﷺ) ويثني عليه ويذكر الخلفاء الراشدين خليفةً خليفة، واصفاً كلاً منهم بأبرز سماته التي قدّم من خلالها خدمةً جليلةً للإسلام. فابن الزكي يتدرج في خطاب شديد التهذيب في الحمد والشكر والمدح، وهو عندما ينتقل إلى البشرى بالفتح فإنه يعد فتح القدس علامةً من علامات الرضا الرباني عن المسلمين، ومكافأة له منهم يستحقونها بعد تعب ومشقة، ويبدو ابن الزكي مغتبطاً جداً لاستشعاره أن الله ينصر المسلمين إذ نصروه، وأن ما تحقق ما هو إلا هبة من الله منحها من استحقها، وفاز في امتحان الطاعة والعمل.

السمات الفنية الظاهرة في الخطبة

أولاً: لا يخفى الصدق الفني[50] في النص المتحصل علاوةً على الصدق الحقيقي، فابن الزكي من كبار علماء المسلمين وخطبائهم، الذين تاقوا إلى النصر بلهفة، فجاء نص خطبته صادقَ المشاعر، غنياً بإحساس الفرح الغامر.

ثانياً: جاءت الخطبة في مقدمة وعرض وخاتمة، فالمقدمة اشتملت على التحميد، وهو ما كان يعده الخطباء ضرورة لا بد منها، وقد زين تحميده بالتشهد والحديث عن وحدانية الله[51]، ثم جاء العرض مبشراً بالفتح

مهنئاً به، رابطاً بين الفتح القدسي الصلاحي وفتوحات المسلمين الأولى، مذكراً بدور الرسول (ﷺ) والخلفاء الأربعة في رفع الشرك عن الأرض الإسلامية، وقد فصل ابن الزكي في الحديث عن فضائل بيت المقدس والمكانة الدينية والتاريخية التي يحتلها، مشيداً بالجيش الإسلامي الذي حرره، ومؤكداً أهمية الاستمرار في المسيرة نفسها. وأما الخاتمة فقد ركزت على القائد صلاح الدين وما له من مزايا يصعب تكرارها، منهياً بالدعاء له حاكماً صالحاً، وقائداً مظفراً، وقدوةً سمحةً.

وقد جاءت أقسام الخطبة منسجمة متوائمة، ليس بينها انبتات، فالوحدة الموضوعية متحققة، إذن، فيها[52].

ثالثاً: جاء الاقتباس من القرآن الكريم موظفاً في غير فكرة ضمن الموضوع الرئيس، ففي البداية يستشهد الخطيب بآيات دالة على موقف الفتح الجليل، وما يتوجب من الحمد إزاءه. كما استشهد في موضع آخر من المقدمة، بما يدل على معنى التوحيد، بوصفه أساس العقيدة الإسلامية ورمزها: ﴿لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد﴾.

وفي المقابل اقتبس ما يدل على كفر من يشرك في عبادة الله أحداً ﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم﴾، كما وظف جانباً آخر من الاقتباس في الدلالة على قدسية المكان المحرر ﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً﴾.

وقد أدى الاقتباس دوراً في نهاية الخطبة، إذ عبر عن معاني الشكر والامتنان والدعاء بالرحمة والصلاح في قوله تعالى: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾[53].

رابعاً: هذه خطبة تنتمي إلى القرن السادس الهجري الذي امتازت الكتابة فيه بسمات عامة، فقد غلبت الصنعة وألوان البديع والتأنق اللفظي، ويتضح هذا الأمر في خطبة ابن الزكي في أكثر من بعد. فالسجع عنصر غالب في أجزاء الخطبة جميعاً، وقد أُفعم النص بموسيقى ووقع يستقر في

الأسماع، وليس السجع في هذه الخطبة من ذاك الصنف المتكلف المبالغ فيه، بل إن الجو يسمح ومناسبة النصر والبشرى تدعو إلى إبداع نص حيوي: حافل بالمضمون القوي، والشكل المعبر.

وقد جاءت عبارات الخطبة ميالة إلى القصر غالباً (أحمده على إظفاره وإظهاره، وإعزازه لأوليائه، ونصره لأنصاره، وتطهيره بيته المقدس من أدناس الشرك وأوضاره.. وأشهد أن محمداً (ﷺ) عبده ورسوله، رافع الشك وداحض الشرك، وداحض الإفك..)"[54].

وفي النص ترى أشكال من المحسنات البديعية، كالجناس (وبخيولهم الجياد، وبجلادهم في مواطن الجلاد)، (وأحسن جزاءه، وأشكر عن الملة مضاءه)، (فلا تلقاه منهم كتيبة إلا مزقها ولا جماعة إلا فرقها)[55]، كما يبدو الالتفات في قوله: "أيها الناس، أبشروا.."، وذلك بعد طول تحميد وتمهيد.

ومن أبرز أشكال البيان في الخطبة: الطباق، وهو موظف بطريقة موفقة تماماً في خدمة جو النص، فهو ينبئ عن مفارقة بين الأمس واليوم، بين الاحتلال والتحرر، والكفر والإيمان.. وقد جاء الطباق في مواقع عديدة من النص، ولم يتوقف استخدامه عند المفردات (الطباق بين مفردتين) بل تعداه إلى الجمل: (معز الإسلام بنصره، ومذل الشرك بقهره)[56]. واستعمل الخطيب التورية في قوله: "لما يسره الله على أيديكم من استرداد هذه الضالة من الأمة الضالة"[57]، يقصد بالضالة الأولى القدس، والثانية صفة للعدو.

خامساً: خدم التكرار النص خدمةً جليةً، بتوكيده الفكرة، وإضفائه جرساً موسيقياً مستحسناً مؤثراً في النفوس. ومن نماذج التكرار في نص الخطبة تكرار (الحمد) إحدى عشرة مرةً؛ من باب إبراز هذا المعنى وتعميقه، كما أن من أمثلته تكرار كلمة (الله) خمساً وخمسين مرة، وفي هذا تركيز على مبدأ التوحيد الخاص بالعقيدة الإسلامية، والتوجه إليه برجاء دوامها.

ومن مظاهر التكرار أيضاً الإتيان بغير عبارة تحمل معاني متقاربة، وتخدم

فكرة واحدة: "القاهر فوق عباده فلا يمانع، والظاهر على خليقته فلا ينازع، والآمر بما يشاء فلا يراجع، والحاكم بما يريد فلا يدافع" [58].

سادساً: امتزج الخطاب عند ابن الزكي بأساليب الأمر والإغراء والدعاء والتحذير، مما أعطى خطبته مزية التأثير، فهو يراوح بين حثه للمسلمين على القتال ومواصلة دحر العدو، بالدعاء لهم: (واعلموا - رحمكم الله - أن هذه فرصة فانتهزوها وفريسة فناجزوها)، كما يغري بالجهاد: (والجهاد الجهاد فهو من أفضل عباداتكم)، ويحذر من اتباع الهوى: (وإياكم أن يستنزلكم الشيطان)، و(احذروا عباد الله بعد أن شرفكم.. أن تقترفوا كبيراً من مناهيه).

سابعاً: هذا النص وثيقة دينية تاريخية، تشي بذلك ألفاظ ومصطلحات مستخدمة فيه. فالإسلام والشرك والجهاد والبيت المقدس والتوحيد وغيرها ألفاظ دينية إسلامية، والتثليث وكلمة الله إلى مريم من المصطلحات الخاصة بالنصرانية، وأما الجانب التاريخي، فيمثله الحديث عن تاريخ بيت المقدس في إشارات إلى زمن الرسول (ﷺ) والخلفاء الراشدين، وحادثة الإسراء والمعراج، وكون المسجد الأقصى أولى القبلتين ومقر الأنبياء وموطن النبي آدم، عليهم السلام.

ثامناً: التصوير الأدبي في المقطع المتحدث عن القدس وحالها وسط فرحة النصر والفتح، ذلك الفتح الذي (فتحت له أبواب السماء، وتبلجت بأنواره وجوه الظلماء)، وهي صورة معبرة عن عظمة الموقف وجلاله. ولم يعتن ابن الزكي بالصور الأدبية، فكانت خطبته نصاً فنياً معبراً عن الأفكار، بمباشرة لم يلتفت فيها إلى بناء الصور والتشبيهات إلا ما ندر.

تاسعاً: تم نثر بعض الأحاديث في سياق الحديث عن المسجد الأقصى (هو أولى القبلتين، وثاني المسجدين، وثالث الحرمين الشريفين) إشارةً إلى الحديث الشريف: "لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، والمسجد الأقصى، ومسجدي هذا" [59].

وفي نظرة تقويمية إلى هذه الخطبة، فإنها حققت شروط النجاح والتميز، بما فيها من صدق اللهجة وقوة التأثير المستمد من قوة اعتقاد الخطيب بما يدعو إليه[60]، علاوةً على كثافة الاقتباس موفق التوظيف، وغزارة أساليب التوكيد والتجميل، وإذا أضيف إلى مكانة الخطيب نفسه، وسداد رأيه، وسعة اطلاعه طريقة محببة له في التودد إلى السامعين بحسن الخطاب والدعاء لهم، فإن للخطبة هذه أن تقف في مصاف الخطب الأدبية الفرائد[61].

عاشراً: على الرغم من أن هذه الخطبة بشارة وتهنئة، فإنها لم تخل من الترغيب والترهيب، فالترغيب بدا ظاهراً في الحث على التمسك بالجهاد وبيان منافعه ومكاسبه التي تستحق السعي لأجلها، وأما الترهيب فيلمس ضمناً من خلال العاقبة التي حذر من وقوعها في حالة عدم التزامهم النهج الذي كانوا يحافظون عليه.

الاتباعية في خطبة القاضي محيي الدين بن الزكي

ثمة إشارات في بعض المراجع إلى أن خطبة ابن الزكي في فتح القدس قد حملت في طياتها ملامح من الأدب في عصور سابقة للعصر الأيوبي، وبالتحديد من العصر العباسي، فقد تمت الإشارة إلى الخطيب الشهير ابن نباتة الفارقي، والشاعر الكبير أبي تمام[62].

وابن نباتة عاش في عهد سيف الدولة، وأنشأ كثيراً من خطب الجهاد، ويذكر أن تأثر ابن الزكي بخطب ابن نباتة كان في الأسلوب المسجوع والموشح بالقرآن والحديث والأمثال وغيرها، مع وجود فوارق تتمثل في أن خطب ابن نباتة تميل إلى القصر، ويمتد فيها السجع إلى عشرين سجعة، في حين تراوح بين سجعتين وعشر سجعات، عند ابن الزكي[63].

وباستقراء سريع لديوان خطبه، نستطيع أن نخرج بعدد من الخصائص التي تشكل أسلوب ابن نباتة، الذي يتقارب فيه مع أسلوب ابن الزكي:

1 - مزج الحمد بالتشهد، مع إطالة التحميدات في بداية الخطبة[64].

2 - المخاطبة باستخدام (أيها الناس)، ويندر أن تخلو منها خطبة[65].

3 - غزارة الاقتباس من القرآن والتضمين من الحديث[66].

وجاء تأثر ابن الزكي بأبي تمام في قصيدة أبي تمام الشهيرة[67] في فتح عمورية، يقول:

فَتحُ الفتوحِ تعالى أن يُحيط بهِ نَظمٌ من الشِّعر أو نَثرٌ من الخُطَبِ
فَتح تفتح أبوابُ السماءِ له وتبرُزُ الأرضُ في أثوابها القشُبِ[68]

ويقول ابن الزكي: "فهذا الفتح الذي فتحت له أبواب السماء، وتبلجت بأنواره وجوه الظلماء و. . "[69].

فالتشابه في تصوير عظمة الفتح، وكيف تنفتح له أبواب السماء رجعاً لهيبته وجلاله.

الخطبة تعكس صدى النفوس لدى تسليم القدس

في سنة (626هـ) جرت مفاوضات بين فردريك الثاني (صاحب صقلية)، والملك الكامل الأيوبي حول تسليم الكامل للقدس مقابل هدنة مع الفرنج، وقد كانت النتيجة أن خذل الملك الكامل الإسلام والمسلمين جميعاً بموافقته على هدنة مريبة وتسليم مشين، وقد أبى ملك الفرنج (فردريك) أن يرجع إلى بلاده - وكان قد سافر إلى عكا ليلقى الكامل - إلا بتحقيق شرطه (تسليم القدس)[70].

وقد نصت الاتفاقية المعقودة بين الملكين، على أن يتم تسليم القدس شريطة أن تبقى خراباً، ولا يكون للفرنج شيء من قرى القدس الخارجية، وأن يكون مقام الملك فردريك (البيرة) من أعمال القدس، ويكون الحرم الشريف بما حواه بأيدي المسلمين، لا يدخله الفرنج إلا للزيارة. ونودي في البلد بخروج المسلمين، فخرجوا يجرون أذيال الألم والخيبة الذليلة، وأنكر الناس على الكامل هذا العمل، وأخذ الناصر داود في التشنيع على عمه، وأوعز إلى سبط ابن الجوزي أن يقيم مجلساً في هذا الحدث المؤلم المبكي[71].

وكان غرض الملك الناصر داود هو تقبيح صورة عمه الملك الكامل؛ للخلافات بينهما ولتسليمه القدس، وقد أوعز إلى ابن الجوزي بالتركيز على

فضائل القدس وما ورد فيه من الأخبار والآثار، وأن يستثير غضب الناس وحزنهم على القدس الضائعة، ويشعل حنقهم على إثر الصغار والذل اللاحقين بالأمة الإسلامية جمعاء.

وفي اليوم المقرر، جلس سبط ابن الجوزي في مجلسه بجامع دمشق، وكان حضوراً عظيماً من بينهم الناصر داود نفسه، وقد نص على أن كان يوماً مشهوداً لم يتخلف فيه أحد من أهل دمشق. وقد كان من خطبة سبط ابن الجوزي في هذا الحدث الجلل قوله: "انقطعت عن بيت المقدس وفود الزائرين، يا وحشة المجاورين، كم كانت لهم في تلك الأماكن من ركعة! كم جرت لهم على المساكن من دمعة! تالله لو صارت عيونهم عيوناً لما وفت، ولو تقطعت قلوبهم أسفاً لما شفت. أحسن الله عزاء المؤمنين، يا خجلة ملوك المسلمين! لمثل هذه الحادثة تسكب العبرات، لمثلها تنقطع القلوب من الزفرات، لمثلها تعظم الحسرات.." .

على قبةِ المعراج والصخرةِ التي تفاخِرُ ما في الأرضِ من صَخَراتِ
مدارسُ آياتٍ خلتْ من تلاوةٍ ومنزِل وَحْيٍ مقفر العَرَصاتِ" [72]

ومما هو جدير بالذكر أن ابن الجوزي لم يُلقِ هذه الخطبة إذعاناً لرأي الملك الناصر فحسب، وإنما رأى في التعبير عن مصاب المسلمين هذا واجباً عليه يتفق وضرورة قول الحق، وإعلان الرأي بصدق وتجرد[73].

يمثل النموذج المعروض من هذه الخطبة أسلوباً بليغاً في التأثير، فهو يصف واقعاً آل إليه بيت المقدس: لا زوار ولا راكعين، قلوب حزينة ونفوس كاسفة.. مع تقديم الصورة السابقة للقدس، بهيةً يقصدها الزوار ويأنس بها أهلها.. ثم كان وصف تسليم القدس بقتل لها وإماتة، وليس ثمة خيار الآن إلا بتقبل العزاء في هذه الفقيدة الغالية.. واستخدام الخطيب للتهكم هنا، يظهر مدى فظاعة الجرم (أحسن الله عزاء المؤمنين، يا خجلة ملوك المسلمين!).

إن قوة اللغة وحسن اختيار الأسلوب هنا له الدور الأكبر في تقديم نص أدبي معبر عن الحدث التاريخي، فالتعجب التهكمي، والتكرار كقوله (لمثل هذه

الحادثة تسكب العبرات، لمثلها تنقطع القلوب من الزفرات، لمثلها تعظم الحسرات) له أهمية في إعطاء المعنى توكيداً خاصاً وتعميق هذه الفكرة في نفس السامع، علاوةً على جرس صوتي يعضد المعنى ويقويه.

إن خطبة تقال في مناسبة موحشة كهذه، ليُنتظر منها أن تكون قوية التأثير، في اللغة والأسلوب، والأهم هو كونها واضحة مباشرة، إذ لا مجال هنا للتعقيد والتكلف، فقد جاءت العبارات بسيطة غير ملتوية التراكيب، ولم يتعارض هذا مع كونها حافلة بأساليب النداء والتعجب والتكرار والقسم، وقد جاء السجع مستساغاً أقرب إلى الطبع، بدليل عدم صحة تكرار السجعة في أكثر من جملتين غالباً، وأما الجناس فقد جاء أيضاً بسيطاً غير متكلف، معبراً في نقل صورة المسلمين الحزينة، وهم لا يملكون حولاً: (لو صارت عيونهم عيوناً).

وكما جاء الاستشهاد بأبيات من قصيدة لابن المجاور داعماً معنوياً، فالنثر يتضافر مع الشعر في وصف المشاعر وبكاء القدس الضائعة، وهو تضمين منتقى بعناية، موفق في إيصال الغاية، حيث إن البيتين مقتبسان من قصيدة تعد من القصائد التي واكبت الحدث، وعبرت عنه بمستوى لائق وجيد، إن لم يكن متميزاً في مواطن.

وينوه هنا بأن سبط بن الجوزي في معرض كلمته، أورد قصيدة مضمناً إياها بيت دعبل الخزاعي[74].

مدارسُ آياتٍ خلت من تلاوة ومنزل وحيٍ مقفر العَرَصاتِ

وبنظرة إلى الحقل الدلالي لمفردات الخطبة نلمح كثافة في مجال المفردات المنضوية تحت (ألم، حزن) ألا وهي: (انقطاع الوفود، وحشة، عيون باكية، تقطع القلوب، الأسف، العزاء، العبرات، الزفرات، الحسرات).

وعلى ذلك، فقد كانت الخطبة – من خلال هذا النموذج – مرآة عكست صورة القدس البائسة عند تسليم الملك لها، فوصفت سوء الحالة المعنوية، وعرضت بملوك المسلمين الذين يفترض فيهم الحرص على مصالح المسلمين،

لا التفريط بها وبيعها - بلا ثمن - للعدو وكأنها من ممتلكات هؤلاء الملوك يتصرفون بأمرها كيفما يرون!

وكان من نتيجة هذه الكلمة الموجزة المعبرة أن استحسن المسلمون ذلك، ثم ألقى السلطان صلاح الدين خطبة قصيرة أكد فيها أهمية الجهاد. وكان من نتيجتي كلمتي ابن شداد، وصلاح الدين أن تحمس ابن المشطوب وقال: "يا مولانا نحن مماليكك وعبيدك، وأنت أنعمت علينا وكبّرتنا وعظمتنا وأعطيتنا، وليس لنا إلا رقابنا، وهي بين يديك، والله لا يرجع أحد عن نصرتك إلا أن نموت" (75).

يستدل مما سبق على طريقة عميقة في التغلب على اليأس، وظفها الواعظ البليغ ليحيي الأمل في النفوس، ويذكرهم بفضيلة القتال في سبيل الله، والملاحظ على كلمته هذه إيجازها وبساطة أسلوبها التقريري وخلوها من أية منمقات، ومع ذلك فقد نابت مناب خطب طوال في أثرها، فالموقف لم يكن بحاجة إلا إلى مثل تلك الخطبة المقتضبة، والموقف الحربي ليس مجاله استعراض ألوان البيان، والإطناب، والمبالغة..

كما يستدل على المكانة الاجتماعية والمصداقية العالية للخطيب والواعظ، إذ لو لم يكن في أعماله وسلوكه صادقاً صدقه في الأقوال، لما كان التجاوب مع كلامه كبيراً، ولما حمل كلامه على مأخذ الأهمية والضرورة.. وهكذا هو شأن الناس في الاستجابة لمن يظن أنه أهل لامتلاك الصفات التي يدعو إليها.

ومن الوعاظ اللامعين في بيت المقدس في تلك الحقبة الشيخ الإمام زين الدين الرهاوي الحلبي(76)، والحافظ العلامة شهاب الدين أحمد بن عبد الله الكناني المجدي المقدسي الشافعي(77)، وغيرهما(78).

نص خطبة القاضي محيي الدين بن الزكي(79)

قال العماد: وخطب القاضي محيي الدين بن زكي الدين أربع خطب، في أربع جمع، كلها من إنشائه، وأودعها سر بلاغة عنيت بإفشائه، وذكرت

الخطبة الأولى، ويد الفصاحة فيها طولى، افتتاحها بهذه الآيات ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾[80]، و﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾﴾[81]، و﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾[82]، و﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾[83]، و﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ﴾[84]، و﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾[85]، و﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾[86]، و﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[87].

والخطبة: الحمد لله معز الإسلام بنصره، ومذل الشرك بقهره، ومصرف الأمور بأمره، ومديم النعم بشكره، ومستدرج الكافرين بمكره، الذي قدر الأيام دولاً بعدله، وجعل العاقبة للمتقين بفضله، وأفاء على عباده من ظله، وأظهر دينه على الدين كله، القاهر فوق عباده فلا يمانع، والظاهر على خليقته فلا ينازع، والآمر بما يشاء فلا يراجع، والحاكم بما يريد فلا يدافع.

أحمده على إظفاره، وإظهاره، وإعزازه لأوليائه، ونصره لأنصاره، وتطهيره بيته المقدس من أدناس الشرك وأوضاره، حمد من استشعر الحمدَ باطنُ سره وظاهر جهاره.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، الأحد الصمد الذي ﴿لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد﴾ شهادة من طهر بالتوحيد قلبه، وأرضى به ربه.

وأشهد أن محمداً (ﷺ) عبده ورسوله، رافع الشك، وداحض الشرك، وداحض الإفك، الذي أسري به من المسجد الحرام إلى هذا المسجد الأقصى، وعرج به منه إلى السماوات العلا إلى سدرة المنتهى، عندها جنة المأوى، ما زاغ البصر وما طغى.

صلى الله عليه، وعلى خليفته أبي بكر الصديق السابق إلى الإيمان،

وعلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أول من رفع عن هذا البيت شعار الصلبان، وعلى أمير المؤمنين عثمان بن عفان ذي النورين جامع القرآن، وعلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب مزلزل الشرك ومكسر الأوثان، وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان.

أيها الناس، أبشروا برضوان الله الذي هو الغاية القصوى، والدرجة العليا، لما يسره الله على أيديكم من استرداد هذه الضالة، من الأمة الضالة، وردها إلى مقرها من الإسلام بعد ابتذالها في أيدي المشركين قريباً من مئة عام، وتطهير هذا البيت الذي أذن الله أن يرفع وأن يذكر فيه اسمه، وإماطة الشرك عن طرقه بعد أن امتد عليها رواقه، واستقر فيها رسمه، ورفع قواعده بالتوحيد فإنه بني عليه، وبالتقوى فإنه أسس على التقوى من خلفه ومن بين يديه، فهو موطن أبيكم إبراهيم، ومعراج نبيكم محمد (ﷺ)، وقبلتكم التي كنتم تصلون إليها في ابتداء الإسلام، وهو مقر الأنبياء، ومقصد الأولياء، ومقر الرسل، ومهبط الوحي، ومنزل تنزل الأمر والنهي، وهو في أرض المحشر وصعيد المنشر، وهو في الأرض المقدسة التي ذكرها الله في كتابه المبين، وهو المسجد الذي صلى فيه رسول الله (ﷺ) بالملائكة المقربين، وهو البلد الذي بعث الله إليه عبده ورسوله، وكلمته التي ألقاها إلى مريم وروحه، عيسى الذي شرفه الله برسالته، وكرمه بنبوته، ولم يزحزحه عن رتبة عبوديته، فقال تعالى: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ﴾(88)، وقال: ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾(89).

وهو أولى القبلتين، وثاني المسجدين، وثالث الحرمين، لا تشد الرحال بعد المسجدين إلا إليه، ولا تعقد الخناصر بعد الموطنين إلا عليه، ولولا أنكم ممن اختاره الله من عباده، واصطفاه من سكان بلاده، لما خصكم بهذه الفضيلة التي لا يجاريكم فيها مجار، ولا يباريكم في شرفها مبار، فطوبى لكم من جيش ظهرت على أيديكم المعجزات النبوية، والوقعات البدرية، والعزمات الصديقية، والفتوح العمرية، والجيوش العثمانية، والفتكات العلوية، جددتم للإسلام أيام القادسية، والوقعات اليرموكية، والمنازلات الخيبرية، والهجمات الخالدية،

فجزاكم الله عن نبيه محمد (ﷺ) أفضل الجزاء، وشكر لكم ما بذلتموه من مهجكم في مقارعة الأعداء، وتقبل منكم ما تقربتم به إليه من مهراق الدماء، وأثابكم الجنة فهي دار السعداء، فأقدروا - رحمكم الله - هذه النعمة حق قدرها، وقوموا لله تعالى بواجب شكرها، فله النعمة عليكم بتخصيصكم بهذه النعمة، وترشيحكم لهذه الخدمة، فهذا هو الفتح الذي فتحت له أبواب السماء، وتبلجت بأنواره وجوه الظلماء، وابتهج به الملائكة المقربون، وقر به عيناً الأنبياء والمرسلون، فماذا عليكم من النعمة، بأن جعلكم الجيش الذي يفتح عليه البيت المقدس في آخر الزمان، والجند الذي تقوم بسيوفهم بعد فترة من النبوة أعلام الإيمان، فيوشك أن تكون التهاني به بين أهل الخضراء، أكثر من التهاني به بين أهل الغبراء، أليس هو البيت الذي ذكره الله في كتابه، ونص عليه في خطابه، فقال تعالى: ﴿سُبْحَانَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾(90)، أليس هو البيت الذي عظمته الملوك، وأثنت عليه الرسل، وتليت فيه الكتب الأربعة المنزلة من إلهكم عز وجل؟ أليس هو البيت الذي أمسك الله - عز وجل - الشمس على يوشع لأجله أن تغرب، وباعد بين خطواتها ليتيسر فتحه ويقرب؟ أليس هو البيت الذي أمر الله موسى أن يأمر قومه باستنقاذه فلم يجبه إلا رجلان، وغضب عليهم لأجله، فألقاهم في التيه عقوبة للعصيان؟

فاحمدوا الله الذي أمضى عزائمكم لما نكلت عنه بنو إسرائيل، وقد فضلهم على العالمين، ووفقكم لما خذل فيه من كان قبلكم من الأمم الماضين، وجمع لأجله كلمتكم وكانت شتى، وأغناكم بما أمضته "كان" و"قد" عن "سوف" و"حتى". فليهنكم أن الله قد ذكركم به فيمن عنده، وجعلكم - بعد أن كنتم جنوداً لأهويتكم - جنده، وشكركم الملائكة المنزلون على ما أهديتم إلى هذا البيت من طيب التوحيد، ونشر التقديس والتحميد، وما أمطتم عن طرقهم فيه من أذى الشرك والتثليث، والاعتقاد الفاجر الخبيث، فالآن يستغفر لكم أملاك السماوات، وتصلي عليكم الصلوات المباركات.

فاحفظوا - رحمكم الله - هذه الموهبة فيكم، واحرسوا هذه النعمة

عندكم، بتقوى الله التي من تمسك بها سلم، ومن اعتصم بعروتها نجا وعُصِم، واحذروا من اتباع الهوى، وموافقة الردى، ورجوع القهقرى، والنكول على العدى، وخذلوا في انتهاز الفرصة، وإزالة ما بقي من الغصة، وجاهدوا في الله حق جهاده، وبيعوا عباد الله أنفسكم في رضاه، إذ جعلكم من عباده، وإياكم أن يستزلكم الشيطان، وأن يتداخلكم الطغيان، فيخيل لكم أن هذا النصر بسيوفكم الحداد، وبخيولكم الجياد، وبجلادكم في مواطن الجلاد، لا والله، ﴿وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ١٠﴾[91].

واحذروا عباد الله - بعد أن شرفكم بهذا الفتح الجليل، والمنح الجزيل، وخصكم بهذا الفتح المبين، وأعلق أيديكم بحبله المتين - أن تقترفوا كبيراً من مناهيه، وأن تأتوا عظيماً من معاصيه، فتكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً، والذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين، والجهاد الجهاد فهو من أفضل عباداتكم، وأشرف عاداتكم، انصروا الله ينصركم، اذكروا الله يذكركم، اشكروا الله يزدكم ويشكركم، جدوا في حسم الداء، وقطع شأفة الأعداء، وتطهير بقية الأرض التي أغضبت الله ورسوله، واقطعوا فروع الكفر واجتثوا أصوله، فقد نادت الأيام بالثارات الإسلامية، والملة المحمدية.

الله أكبر، فتح الله ونصر، غلب الله وقهر، أذل الله من كفر.

واعلموا - رحمكم الله - أن هذه فرصة فانتهزوها، وفريسة فناجزوها، ومهمة فاخرجوا لها هممكم وبرزوها، وسيروا إليها سرايا عزماتكم وجهزوها، فالأمور بأواخرها، والمكاسب بذخائرها، فقد أظفركم الله بهذا العدو المخذول، وهم مثلكم أو يزيدون، فكيف وقد أضحى في قبالة الواحد منهم منكم عشرون، وقد قال الله تعالى: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمۡ عِشۡرُونَ صَٰبِرُونَ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ﴾[92] أعاننا الله وإياكم على اتباع أوامره، والازدجار بزواجره، وأيدنا معشر المسلمين بنصر من عنده ﴿إِن يَنصُرۡكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمۡۖ وَإِن يَخۡذُلۡكُمۡ فَمَن ذَا ٱلَّذِي يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ﴾[93].

وتمام الخطبة (الخطبة الثانية) قريب مما جرت به العادة، وقال بعد الدعاء للخليفة: اللهم، وآدم سلطان عبدك، الخاضع لهيبتك، الشاكر لنعمتك، المعترف بموهبتك، سيفك القاطع، وشهابك اللامع، والمحامي عن دينك، المدافع، والذاب عن حرمك الممانع، السيد الأجل، الملك الناصر، جامع كلمة الإيمان، وقامع عبدة الصلبان، صلاح الدنيا والدين، سلطان الإسلام والمسلمين، مطهر البيت المقدس، أبي المظفر يوسف بن أيوب، محيي دولة أمير المؤمنين.

اللهم عم بدولته البسيطة، واجعل ملائكتك براياته محيطة، وأحسن عن الدين الحنيفي جزاءه، واشكر عن الملة المحمدية عزمه ومضاءه.

اللهم أبق للإسلام مهجته، ووق للإيمان حوزته، وانشر في المشارق والمغارب دعوته.

اللهم كما فتحت على يده البيت المقدس بعد أن ظنت الظنون، وابتلي المؤمنون، فافتح على يده أداني الأرض وأقاصيها، وملكه صياصي الكفرة ونواصيها، فلا تلقاه منهم كتيبة إلا مزقها، ولا جماعة إلا فرقها، ولا طائفة بعد طائفة إلا ألحقها بمن سبقها.

اللهم اشكر عن محمد (ﷺ) سعيه، وأنفذ في المشارق والمغارب أمره ونهيه، اللهم وأصلح به أوساط البلاد وأطرافها، وأرجاء الممالك وأكنافها.

اللهم ذلل به معاطس الكفار، وأرغم به أنوف الفجار، وانشر ذوائب ملكه على الأمصار، وابثث سرايا جنوده في سبل الأقطار.

اللهم ثبت الملك فيه وفي عقبه إلى يوم الدين، واحفظه في بنيه وبني أبيه الملوك الميامين، واشدد عضده ببقائهم، واقض بإعزاز أوليائه وأوليائهم.

اللهم كما أجريت على يده في الإسلام هذه الحسنة التي تبقى على الأيام، وتتخلد على مر الشهور والأعوام، فارزقه الملك الأبدي الذي لا ينفد في دار المتقين، وأجب دعاءه في قوله: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ

عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾(94).

ثم (دعا) بما جرت به العادة.

خاتمة

لم تكن القدس مجرد مدينة من المدن يمر عليها الأدب مرور الكرام، بل هي مسرح حضاري يتلاقى فيه النقيضان: توحيد وشرك، وعدالة وظلم، ودماء ودموع، وهتاف النصر وأنة الألم، وبصيص نور وجيش من الظلام كثيف.

وقد نالت القدس من قلوب المسلمين مكاناً رحيباً، أفراداً وحكاماً.. فكان أن عبر الأدب بصفته وسيلةً إعلاميةً عما تناوب على هذه المدينة من حرب ونصر وهزيمة، وما كان من أمر تعامل الحاكم المسلم مع أهل الكتاب من ساكني القدس..

وثمة ميل قوي إلى أن نصوصاً خطابية لم تصلنا، وأما ما هو متوفر فيدل على خصوصية للعصر الأيوبي، تمثلت في نشاط الحركة الخطابية المتعلقة بأحداث جارية في بيت المقدس، ولعل هذا يُعزى إلى غزارة الأحداث الواقعة في القدس آنذاك..

وقد لوحظ أن فنية الخطبة اعتمدت على مناسبتها، فابن الزكي يلون خطبته بألوان البديع والجماليات اللفظية، في حين لم تكن الخطب الأخرى (كخطبة سبط بن الجوزي، وخطبة صلاح الدين الحربية) تحفل بهذه الصنعة اللفظية، فهي تدخل مباشرة في الموضوع وتحدد الفكرة دون إطالة.

الهوامش والمراجع

(1) سيلي ذكر ذلك في ص 6، 7.

(2) ابن شداد، بهاء الدين يوسف: **النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية**، ق. جمال الدين الشيال، القاهرة: الدار المصرية للتأليف، 1964، ص 97، 212.

(3) ابن واصل، جمال الدين محمد بن سالم: **مفرج الكروب في أخبار بني أيوب**، حسنين محمد ربيع، مطبعة دار الكتب العلمية، 1972، ص 5، 302.

(4) بدوي، أحمد: **الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية**، القاهرة: دار النهضة، ط2، ص 379.

(5) الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية، ص 379.

(6) ابن الزكي: هو أبو المعالي محمد بن أبي الحسن الأموي الدمشقي الشافعي، ولد بدمشق سنة (550هـ) من أسرة شامية ومن بيت قضاء، وقد تتلمذ على عديد من علماء الشريعة واللغة والأدب، كما تتلمذ على والديه، إذ كان والده قاضياً عالماً، وأمه محدثة. اشتغل ابن الزكي في عدد من مدارس دمشق مدرساً، وكان يعنى بتدريس التفسير والفقه وغيرهما، تبوأ منزلة مرموقة، وكانت له مكانة مميزة عند السلطان صلاح الدين، فقد شارك في المجالس العلمية بحضرة السلطان، توفي سنة (598هـ). ينظر: عبد المهدي، عبد الجليل: ابن الزكي وخطبته القدسية، تحقيق ودراسة، عمّان: **مجلة مجمع اللغة العربية**، العدد 36، 1989، ص 176-190.

(7) هو يوسف بن قزاوغلي، ولد عام (582هـ) ببغداد، اشتغل بالوعظ ونبغ فيه، تنقل بين المدن واعظاً، واستمر في هذه المهمة (50) سنة. يوصف وعظه بقوة التأثير، وعلى الرغم من كثرة مجالسه، إلا أنه لم يصل من وعظه سوى عبارات. بلغ ابن الجوزي مكانةً عاليةً عند المعظم عيسى، له (اللوامع في أحاديث المختصر)، و(مرآة الزمان). ينظر: الزركلي، خير الدين: **الأعلام**، ط4/ج8، دار العلم، 1979، ص 246، وابن خلكان، شمس الدين أحمد بن محمد: **وفيات الأعيان**، ق. إحسان عباس، بيروت: دار الثقافة، 1972، ص 1، 279.

(8) العز بن عبد السلام السلمي الدمشقي: فقيه شافعي بلغ رتبة الاجتهاد، وُلد ونشأ بدمشق، وتولى الخطابة والتدريس بزاوية الغزالي، ثم بالجامع الأموي، له (التفسير الكبير)، و(الإلمام في أدلة الأحكام). الأعلام، 4، 21.

(9) هو يحيى بن سلامة بن الحسين، أبو الفضل، خطيب أديب من الكتاب الشعراء، وتأدب على الخطيب أبي زكريا التبريزي في بغداد، له شعر رقيق. الأعلام، ص 8، 149.

(10) عبد الواحد بن منصور بن محمد بن المنير الإسكندري المالكي: مفسر، له شعر، نظم في (الكان وكان)، من كتبه (تفسير)، ويقع في ستة مجلدات، وله ديوان في المدائح النبوية. الأعلام، 4/ 177، الكتبي، صلاح الدين محمد بن شاكر: **فوات الوفيات**، محمد محيي الدين عبد الحميد، القاهرة: مكتبة النهضة، 1951، ص 72.

(11) محمد بن علي بن وهب بن مطيع، المعروف كأبيه وجده (ابن دقيق العيد)، قاضٍ من أكابر العلماء بالأصول، مجتهد، وأبوه من منفلوط، له تصانيف عديدة منها: (إحكام الأحكام)، و(الإلمام بأحاديث الأحكام). الأعلام، ص 6، 283.

(12) القاسم بن القاسم بن عمر بن منصور: عالم بالعربية، مولده بواسط، له (شرح اللمع لابن جني)، و(شرح التصريف الملوكي). الأعلام، ص 5، 180.

(13) أحمد بن المبارك بن نوفل (الخرفي) (ت: 664هـ)، عالم بالقراءات والفرائض، له (الأحكام)، (الفرائض)، و(العروض)، الأعلام، ص1، 201.

(14) ينظر: عبدالمهدي، عبدالجليل، الحركة الفكرية في ظل المسجد الأقصى، عمّان: دار الأقصى، 1980، 213، والحنبلي، مجير الدين، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، ج2، المطبعة الحيدرية، النجف، 1968، ص 319.

(15) ينظر ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي: **فضائل القدس**، ط1، جبرائيل جبور، بيروت: دار الآفاق، 1979.

(16) الحركة الفكرية في ظل المسجد الأقصى، ص 214.

(17) الحركة الفكرية في ظل المسجد الأقصى، ص 215.

(18) الحركة الفكرية في ظل المسجد الأقصى، ص 215.

(19) الحركة الفكرية في ظل المسجد الأقصى، ص 216، والأنس الجليل، 2،ص 348.

(20) الحركة الفكرية في ظل المسجد الأقصى، ص 231، والأنس الجليل، 2، ص 142.

(21) الحركة الفكرية في ظل المسجد الأقصى، ص 232، والأنس الجليل، 2، ص 32.

(22) من الأئمة الشافعية، تلقى العلم بصنوفه من حديث وفقه في بيت المقدس، والقاهرة. حصل على الإجازات، وأصبح من كبار العلماء في بيت المقدس، ومن ثم اشتغل بالتدريس والخطابة والإمامة. ينظر: الأنس الجليل، ص 2، 114، 115.

(23) مقدسي المولد والنشأة، وُلد سنة (801هـ)، وبها نشأ وتعلم، وعني بالفقه المالكي، فحفظ الرسالة في فقه الإمام مالك، لقي جماعة من الصوفية، وأخذ الحديث عن جماعة، ثم استقر إماماً للمالكية بالأقصى بعد وفاة والده (ت: 889هـ). الأنس الجليل، ص 2، 252.

(24) الحركة الفكرية في ظل المسجد الأقصى، ص220، وفوات الوفيات، ص 2، 19.

(25) الحركة الفكرية في ظل المسجد الأقصى، ص 239، والأنس الجليل، 1، 406، وانظر: عبدالمهدي، عبدالجليل: **بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية**، عمّان: دار البشير، 1989، ص 190.

(26) العماد الأصفهاني، محمد بن صفي الدين، الفتح القسي في الفتح القدسي، محمد محمود صبح، الدار القومية للطباعة والنشر، 62، وكيلاني، محمد سيد، الحروب الصليبية في الأدب العربي، ط2، 1984، ص 70.

(27) هو يوسف بن رافع بن تميم، مؤرخ من كبار القضاة، ولد بالموصل، تولى الإعادة بالنظامية نحو أربع سنين (ت: 632هـ). الأعلام، ص 8، 231.

(28) النوادر السلطانية، ص 212.

(29) صفوت، أحمد زكي: **جمهرة خطب العرب**، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ص 254-255.

(30) جمهرة خطب العرب، ص 310.

(31) النوادر السلطانية، ص 212.

(32) حمزة، عبد اللطيف: **أدب الحروب الصليبية**، ط1، القاهرة: دار الفكر، 1949، ص 205.

(33) الفتح القسي في الفتح القدسي، ص141.

(34) الفتح القسي في الفتح القدسي، ص 141.

(35) الفتح القسي في الفتح القدسي، ص141.

(36) الفتح القسي في الفتح القدسي، ص139.

(37) ينظر: ابن الزكي وخطبته القدسية، ص 192.

(38) الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية، ص 382.

(39) وفيات الأعيان، ج4، ص 229.

(40) ينظر: نص الخطبة في وفيات الأعيان، ج4، 229. وقد أُثبت نص الخطبة في نهاية هذا البحث.

(41) وفيات الأعيان، ج4، ص 229.

(42) ابن الزكي وخطبته القدسية، تحقيق ودراسة، ص 197.

(43) وفيات الأعيان، ج4، ص 229.

(44) وفيات الأعيان، ج4، ص 229.

(45) وفيات الأعيان، ج4، ص 229.

(46) وفيات الأعيان، ج4، 229، وفي النص إشارة من الإسرائيليات.

(47) وفيات الأعيان، ج4، ص 231.

(48) وفيات الأعيان، ج4، ص 231.

(49) العارف، عارف: **تاريخ القدس**، القاهرة: دار المعارف، ص 81-86.

(50) ابن الزكي وخطبته القدسية، ص 202.

(51) ابن الزكي وخطبته القدسية، ص 203.

(52) ابن الزكي وخطبته القدسية، ص 204.

(53) القرآن الكريم، سورة النمل، آية 19.

(54) ينظر: نص الخطبة في وفيات الأعيان، ج4، ص 230-236.

(55) ينظر: نص الخطبة في وفيات الأعيان، ج4، 230-236. وللاستزادة عن سمات الكتابة الفنية في العصر الأيوبي، ينظر: سلام، محمد زغلول: **الأدب في العصر الأيوبي**، القاهرة: دار المعارف، ص 168.

(56) ينظر: نص الخطبة في وفيات الأعيان، ج4، ص 230-236.

(57) وفيات الأعيان، ج4، ص 231.

(58) نص الخطبة في وفيات الأعيان، ج4، ص 231.

(59) ينظر أبو زهرة، محمد، **الخطابة: أصولها، تاريخها**، ط2، القاهرة: دار الفكر، 1980، ص 50–51.

(60) ينظر: الخطابة: أصولها، تاريخها، ص 50، 51.

(61) النثر الفني في عهد الدولتين الزنكية والأيوبية، ص 238.

(62) ابن الزكي وخطبته القدسية، 206–208، والحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية، ص389.

(63) ابن الزكي وخطبته القدسية، ص 208.

(64) ابن نباتة، عبد الرحمن بن محمد: **خطب ابن نباتة**، ط4، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، 1951، ص 23، 25، 27، 30، 32، 34، 36.

(65) خطب ابن نباتة، ص 6، 9، 11، 18، 29.

(66) خطب ابن نباتة، ص 21، 23، 25، 26، 27، 31، 33.

(67) ابن الزكي وخطبته القدسية، ص 206.

(68) ديوان أبي تمام، 1، 7.

(69) وفيات الأعيان، ج1، ص 470.

(70) الحنبلي، أحمد بن إبراهيم: **شفاء القلوب في مناقب بني أيوب**، ق. مديحة الشرقاوي، القاهرة: مكتبة الثقافة، 1996، ص 267.

(71) مفرج الكروب، ص 245.

(72) ابن الجوزي، سبط يوسف بن قزاوغلي، مرآة الزمان، ج8، حيدر آباد: 1951، ص 432، وينظر: مفرج الكروب، ص 245، وشفاء القلوب، ص 268.

(73) مفرج الكروب، ص 246.

(74) دعبل الخزاعي: شاعر هجاء، أصله من الكوفة، شعره جيد، وكان صديق البحتري، صنف كتاباً في طبقات الشعراء، هجا الخلفاء كالمأمون، والمعتصم (ت: 246هـ). الأعلام، 2، ص 339.

(75) النوادر السلطانية، ص 212.

(76) قدم إلى بيت المقدس سنة (815هـ)، ونال احترام علمائها، عينه شمس الدين الهروي شيخ الصلاحية معيداً فيها، كان متفنناً في وعظه، يعظ بلطافة وجد وهزل. الأنس الجليل، 2، ص 177.

(77) كان متفوقاً في الوعظ، بل هو إمامة بلا منازع، عقد مجالسة بالمسجد الأقصى من 836هـ إلى 870هـ. الأنس الجليل، 1، ص 365.

(78) للاستزادة عن الوعاظ ينظر: الحركة الفكرية في ظل المسجد الأقصى، ص 239–246.

(79) وفيات الأعيان، ج4، ص 229–234.

(80) الأنعام، 45.

(81) الفاتحة، 1–3.

(82) الأنعام، 1.

(83) الإسراء، 111.

(84) الكهف، 1.

(85) النمل، 59.

(86) سبأ، 1.

(87) فاطر، 1.

(88) النساء، 172.

(89) المائدة، 72.

(90) الإسراء، 1.

(91) الأنفال، 10.

(92) الأنفال، 65.

(93) آل عمران، 160.

(94) النمل، 19.

❊ ❊ ❊

Jerusalem in Arabic Sermon Analysis Investigative Study

Hanan Amayrah

This research tries to define rhetoric, and describe its distinctive features in the Ayyube period, which was full of rhetoric about Jerusalem. This research also gives us an idea about culture and thoughts in Jerusalem in that period.

It also discusses two kinds of rhetoric: first is religious rhetoric (sermon), and the other is the rhetoric of warfare. All these rhetorical forms and examined beginning with their distinctive marks, to their style and form.

There are many texts which have not survived but it is clear that available texts are enough to say how rhetoric flourished in the Ayyube period.

❊ ❊ ❊